الصباح الإسلامية
09
العدد 2457 - السنة التاسعة
الثلاثاء 26 رجب 1437 - الموافق 3 مايو 2016
Tuesday 3 May 2016 - No.2457 - 9th Year
إعداد : ياسر السيد

سبعة في ظل الله .. يوم لا ظل إلا ظله

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه » متفق عليه( )

التعريف بالراوي :

هو الصحابي الجليل ، سيد الحفاظ الأثبات ، أبو هريرة رضي الله عنه ، اختلف في اسمه واسم أبيه على أقوال كثيرة ، أرجحها أنه : عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، أسلم عام خيبر ، أول سنة سبع ، قال الذهبي : (حمل عن النبي صلى الله عليه وسلم علما كثيرا طيبا مباركا فيه ، لم يلحق في كثرته)

ولم يرو أحد عن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر منه ، لملازمته له ، فقد بلغت مروياته 5374 حديثا .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إنكم تقولون : إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقولون : ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل حديث أبي هريرة ؟ وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم لصفق بالأسواق وكنت ألزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني ، فأشهد إذا غابوا ، وأحفظ إذا نسوا ، وكان يشغل إخوتي من الأنصار عمل أموالهم ، وكنت امرأ مسكينا من مساكين الصفة أعي حين ينسون ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث يحدثه : إنه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضي مقالتي هذه ثم يجمع إليه ثوبه إلا وعى ما أقول ، فبسطت نمرة علي ، حتى إذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته جمعتها إلى صدري ، فما نسيت من مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء( )

توفي أبو هريرة رضي الله عنه سنة سبع وخمسين للهجرة( )

الأحكام والتوجيهات :

1- من فضل الله سبحانه وتعالى أن جعل بعض الأعمال ينال صاحبها جزاء خاصا ، لتميزه بهذا العمل ، وهذا فيه حث وترغيب في أمور كثيرة من الخير

وهنا ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم جزاء هؤلاء السبعة الذين تميز كل منهم بميزة خاصة ، وذكر هذا الفضل في أحاديث أخرى لغير هؤلاء السبعة ، مثل : الغازي في سبيل الله ، والذي ينظر المعسر ، ومعين الغارم ، وكثير الخطى إلى المساجد ، وغيرهم ، مما جعل أهل العلم يقولون أن العدد المذكور لا مفهوم له ، فلا يراد به الحصر .

وقد تتبع الحافظ ابن حجر رحمه الله تلك الخصال ، وأفرادها في كتاب اسمه: (معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال) .

2- ذكر الرجال في هذا الحديث لا مفهوم له أيضا ، إذ تدخل النساء معهم فيما ذكر إلا في موضعين ، هما :

أ- الولاية العظمى والقضاء ، فالمرأة لا تلي المسلمين ولاية عامة ، ولا تكون قاضية ، لكن ينطبق عليها العدل فيما تصح به ولايتها ، كمديرة المدرسة ، ونحوها .

ب- ملازمة المسجد ، لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من المسجد ، وباقي الخصال تدخل فيها المرأة .

3- لقد عظم الشرع أمر العدل ، سواء كان في الولاية العظمى ، أو فيما دونها من الولايات ، حتى في أمور الإنسان الأسرية ، كالعدل بين الزوجات ، والعدل بين الأولاد ، وغير ذلك ، قال تعالى : (وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم)( ) وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم »( ) وقال تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) ( ) ، وقال صلى الله عليه وسلم « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)( )

وذكر الإمام العادل في أول الخصال لعظم أمر الإمامة والعدل فيها .

4- مرحلة الشباب من أهم مراحل العمر ، تقوى فيها العزيمة ، وتكثر الآراء ، وتمتلئ بالحيوية والنشاط ، ولهذا من سلك منهج الله في شبابه ، وغالب هواه ونزواته ، استحق تلك الدرجة العالية المذكورة في الحديث ، وما يعين الشباب على تحقيق هذه الخصلة :

أ- طلب العلم والانشغال به .

ب- تعويد النفس على استغلال الوقت بشتى الوسائل ، كبر الوالدين ، وقضاء حوائجهما ، وقراءة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسيرة السلف الصالح .

ج- مصادقة الصالحين المستقيمين على منهج الله تعالى .

د- محاولة استغلال فرصة الشباب بحفظ كتاب الله تعالى أو شيء منه .

5- المساجد بيوت الله ، ومكان اداء العبادة المفروضة ، وأنواع من العبادات المستحبة ، وميدان العلم والتعلم ، والمذاكرة والمناصحة ، وكلها أعمال جليلة، يستحق للازم لها ذلك الثواب العظيم ، بالإضافة إلى أن المتعلق بالمسجد بعيد عن رؤية المنكرات ، وقريب من الله سبحانه وتعالى ، فيصفو قلبه ، وتتجلى همومه ، ويعيش في روضة من رياض الجنة ، وبذلك تكفر سيئاته ، وتكثر حسناته .

والتعلق بالمساجد لا يعني الجلوس فيها جميع الأوقات ، بل وقت دون وقت ، لكن إذا خرج منها فإنه يحب الرجوع إليها ، وإذا جلس فيها أنس واطمأن وارتاحت نفسه .

6- العلاقات بين الناس قائمة على أسس متعددة من مصالح مادية ، وقرابة ، وشراكة مالية ، وتجانس خلقي ، ونحوها ، والإسلام يشجع قوة الترابط بين المسلمين على أساس من المحبة في الله ، والقاسم المشترك فيها طاعة الله تعالى ، ونصوص الكتاب والسنة تركز على هذا الجانب ، يقول تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) ( ) ، ويقول تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين)( ) ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أوثق عري الإيمان : الحب في الله ، والبغض في الله)( )

7- لتنفس البشرية رغبات وشهوات ، وجه الإسلام لإشباعها بمنهج ثابت معلوم ، والشيطان حريص على أن يميل الإنسان مع شهواته ويتبعها حتى يشاركه في الغي والضلال ، ومما يميل إليه الرجل المرأة ، فإن اتصفت بصفات الجمال والمنصب والحسب والشرف ، كان إليها أكثر ميلا ، فإذا ما كانت الدعوة موجهة منها ، مع الأمن من الخوف تسابقت إليها نفس الرجل أكثر ، وهنا يظهر داعي الإيمان عند المؤمن الصادق ، فيقول : إني أخاف الله ، فإذا قالها بلسان وصدقها عمله ، نال جزاءه العظيم المذكور في الحديث ، وهكذا يريد الإسلام بأن يكون الرجال والنساء أعفاء شرفاء ، بعيدين عن الفواحش والآثام والمحرمات ، يراقبون الله سرا وعلانية .

قال الشاعر :

وإذا خلوت ربية في ظلمة
××× والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحي من نظر الإله وقل لها
××× إن الذي خلق الظلام يراني

8- الصدقة مبدأ عظيم ، وفضلها جسيم ، وثمارها يانعة ، في الدنيا والآخرة ، لا تحصى النصوص في بيان فضلها وثوابها ، ومضاعفة الأجر لصاحبها ، وقربه من الجنةورضا الله ، وحجبه عن النار ، يقول الله تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)( ).

والصدقة فاضلة سراً وعلانية ، يقول تعالى : (إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير)( ).

والأفضل في إظهار الصدقة أو إخفائها يختلف باختلاف الأحوال ، فإن كان في إظهارها مصلحة فهو أفضل ، وإلا فإخفاؤها أفضل فرضا ونفلا.

9- ذكر الله تعالى من أفضل الأعمال ، ومن أيسرها ، فقيه ثناء على الله ، وتمجيد ، وحمد ، وشكر له بما هو أهله ، واعتراف بالتقصير تجاهه ، وإذا كان هذا الثناء والذكر بعيدا عن أعين الناس ، وأثر في صاحبه خوفا وخشية دمعت منها عيناه ، أثابه الله تعالى على هذا الذكر الصادق الخالص بأن يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

10- مما أفاده الحديث : إخلاص العبادة لله جل وعلا ، فالأمر الجامع بين العمال المذكورة في الحديث إخلاصها لله سبحانه وتعالى ، وتجريدها عن المقاصد الأخرى .

11- ومن الأمور الجامعة بين هذه الصفات أيضا : الصبر والتحمل ، ولا شك أن طاعة الله تعالى وتنفيذ أوامره تحتاج إلى صبر ومصابرة ، لأن فيها معارضة للشيطان والنفس والهوى ، فإذا جاهدهم وانتصر عليهم استحق الجزاء الأوفى.

12- مما يرشدنا إليه الحديث أيضا : أن يحرص المؤمن على أن يوجد له عملا خفيا لا يعلم عنه أحد من الناس ، ليكون أبعد عن الرياء ، وليتعود الإخلاص، فإن هذا مما يزيد ممارسته لتلك الأعمال الجليلة .

التربية بالوصف القرآني

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن لا يترك البشرية دون أن يرسلهم لهم رسولا يبلغهم الدين ويرشدهم إلى الصراط المستقيم، وأنزل مع كل رسول معجزة تكون دليلا وبرهانا على صدق نبوته وبيان رسالته ، وكانت معجزات الأنبياء عليهم السلام كل من فن القوم الذين أرسل إليهم ، فموسى عليه وعلى نبينا السلام أتاه الله عزوجل معجزة تفوق السحر الذي اشتهر وانتشر في قومه ، فكان جواب السحرة لما ألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون: « قالو آمنا برب العالمين × رب موسى وهارون » وعيسى عليه السلام اشتهر قومه بالطب فآتاه الله عزوجل معجزات تفوق الطب وتتجاوزه، كما قال سبحانه ممتنا على عيسى عليه السلام: « إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين » سورة المائدة: 110

وكان قوم رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم العرب يفتخرون بالبلاغة ويحبون الشعر ويفتخرون بالشعراء ويعدونهم مفخرة للقبيلة، وكانت تقام الأسواق الأدبية التي تفاخر بها العرب كسوق عكاظ وذي المجاز وغيرها، فأرسل الله عزوجل رسوله بهذه المعجزة الخالدة التي هي من جنس الكلام العرب فلا هو شعر فيجاروه ولاهو نثر فيباروه ، وهو من صميم كلامهم الذي ألفوه ، فلم يستطيع أن يأتوا بمثله، وقد تحداهم الله عزوجل على مراحل فمن ذلك: تحدي العرب أرباب البلاغة والفصاحة أن يأتوا بمثل هذا القرآن فقال سبحانه: « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » سورة الإسراء:88

ثم تحداهم الله عزجل أن يأتوا بعشر سور فقال سبحانه: « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » سورة هود:13

ثم تحداهم الله عزوجل أن يأتوا بسورة واحدة فقال سبحانه: « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » سورة يونس:38

وكل من أراد أن يجاري القرآن لم يستطع إلى ذلك سبيلا كمسيلمة الكذاب وغيره من الكذابين.

فهذا الكتاب المعجز فيه أصل كل خير ، فينبغي لنا معاشر المربين أن نعود إليه ونلتمس تربيتنا منه وننطلق منه وإليه .

ما أنزل القرآن كيما تقتنى .....منه التمائم في صدور الرضع

ما أنزل القرآن كي يتلى على .... قبر تعدد فيه ميت لا يبعى

ما أنزل القرآن إلا منهجاً.....للناس يهدف للتغيير الأمرع

تستنبط الآيات من أحكامه.....ويكون للتشريع أفضل مرجع

والحديث عن التربية بالوصف القرآني هو حديث قديم وله أصل في آثار سلفنا الصالح، فمن ذلك ما روي أن الأحنف بن قيس كان جالسا يوما فجال في خاطره قوله تعالى: «لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم »

فقال: علي بالمصحف لألتمس ذكري حتى أعلم من أنا ومن أشبه؟

قمر بقوم «كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » ومرّ بقوم «يتفقون في السرّاء والضرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » فمرّ بقوم « يؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون » ومرّ بقوم « يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون » فقال تواضعاً منه : اللهم لست أعرف نفسي في هؤلاء، ثم أخذ يقرأ، ومر بقوم «إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون » ومرّ بقوم : يقال لهم «ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين » فقال: اللهم إني أبرأ إليك من هؤلاء ، حتى وقع على قوله تعالى : «وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم » فقال : اللهم أنا من هؤلاء

فاهتمام الصحابة رضوان الله عليهم والسلف الصالح في تربية أنفسهم على كتاب الله سنة رسول الله كان من أصول التربية، وأسس الثبات على المنهج، ومن ذلك ما رواه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم عيينة بن حصن فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر رضي الله عنه وكان القراء (أي أهل القرآن) أصحاب مجلس عمر رضي الله عنه ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا . فقال عيينه لابن أخيه : يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه . فاستأذن فأذن له عمر ، فلما دخل قال : هي يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم فينا بالعدل . فغضب عمر رضي الله عنه حتى هم أن يوقع به . فقال له الحر : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه و سلم: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وإن هذا من الجاهلين . والله ما جاوزها عمر حين تلاها وكان وقافا عند كتاب الله تعالى .

وأمثلة هذا كثير في سير أئمتنا الكرام وسنأتي على جزء منها في آخر المقالة .

ومن الطرق العملية والخطوات التربوية في تدبر القرآن والتربية على الوصف القرآني ما ذكرته الدكتور رقية العلواني في بحث بعنوان: تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق ، ويمكن تلخيصه في الخطوات التالية:

1- تعليم المتعلم عادات وسلوكيات قرآنية منذ نعومة أظافرة ، كتنظيم الوقت و استغلاله بشكل صحيح ، وربط تلك السلوكيات بآيات القرآن وإعطاء المتعلم (حسب الفئات العمرية) تدريبات من القرآن الكريم ليستنبط منها تلك السلوكيات . ومن ذلك التركيز على الأخذ بالقصص القرآنية في التربية والتعرف على الكون والحيوان والنفس من خلال النظر في آيات القرآن الكريم لينشأ الجيل على الربط بين القرآن والكون والنفس.

2- توفير البيئة اللازمة لتنمية تدبر المسلم من خلال نبذ التقليد وتوعية الناس بأهمية التفكير السليم والعودة الى كتاب الله وتدبرة وترك الفرقة والنزاع والبعد عن التكبر عن قبول الحق والاصغاء الى الحق فالحكمة ضالة المؤمن اني وجدها فهو اولى الناس بها .

3- تفعيل وسائل التدبر الادراكية للنفس والتي اهمها السمع وهو اساس العلم المنقول . وقد امر الله به والثنى على اهله واخبر ان لهم البشرى . قال تعالى : واذا سمعوا ما انزل الى الرسول ترى اعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا امنا فاكتبنا مع الشاهدين .

4- ادراك القارئ بانه مخاطب من القران وايانه كما خوطبت بها السابقون . الامر الذي يجعل القارئ يلتفت الى الايات ويتدبر فيها طالما انه استشعر انها موجهة له . يقول ابن القيم في ذلك : « اكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلو من قبل ولم يتعقبوا وارثا . وهذا هو الذي يحول بين القلب و بين فهم القران .

ولعمر الله ان كان اولئك قد خلو فقد ورثهم من هو مثلهم او شر منهم او دونهم وتناول القران كتناوله لاولئك .

5- الاهتمام بالتالي في التلاوة فلا يكن هم القارئ ان ينتهي من السورة او الجزء بل ليكن همه الاول فهم المعاني وتدبرها . ويمكن الاستعانه بالاعادة و التكرار للآيات في سبيل تحقيق ذلك .

6- الاهتمام باللغة العربية والرجوع الى المعاجم لمعرفة معاني الكلمات التي تشكل عليه ، اضافه الى ضرورة النظر الى كلام العلماء وقراءه ما كتبوا في تفسير القران الكريم ، فلا ياتي التدبر دون فهم المعاني .

7- معرفه المعنى الاجمالي للايات في البداية وذلك من بعض التفاسير المعتمدة المختصرة التي تتناول معاني الكلمات باجمال دون ضرورة الوقوف على التفاصيل والخوض في المطولات والشروح والروايات .

8- الاهتمام بالقراءه الشمولية لايات القران وقصصه وحواراته دون القراءه التجزيئية التي تنتزع كلمة او اية معينه من سياقها لاثبات راي معين او استخلاص حكم معين .

9- الاهتمام بالمناسبات والروابط بين الايات والسور وهو علم دقيق تعرف به وجوه ارتباط اجزاء القران بعضها ببعض .

10- الاهتمام بمقاصد السور واهدافها فللقران مقاصد واهداف ولكل سوره مقصد خاص بها .

11- انشغال القلب والعقل بايات القران والحياة معها وصرف الذهن الى الاجواء والظروف التي نزلت فيها .

12- عمل دورات وورش عمل تطبيقية يشرف عليها المتخصصون في تدبير القران وتشجيع ذلك ، خاصة في مواسم المسابقات الدولية لحفظ القران والتي تقام في انحاء متعددة من دول العالم الاسلامي .

13- استحضار اهمية العمل والتطبيق لما يتدبره المسلم ومايتوصل اليه في واقعه وحياته حتى يصبح القران واقعا نحياه وسلوكا عمليا نسير على هداه .

فهذه الخطوات العملية للتربية على الوصف القرآني بحاجة إلى تطبيق ، خذ مثلا آيات عباد الرحمن وهي الآيات من 63-77 من سورة الفرقان أو بداية سورة المؤمنون وطبق عليها مثل هذه الخطوات العملية لتصل بنفسك إلى رقي درجات التربية وتمكن من تعديل سلوكك وفق مراد الله سبحانه وتعالى .

اختم بحديثين عن الصحابة رضوان الله عليه في كيفية تربيتهم لأنفسهم على كتاب الله ، فمن ذلك ما رواه ابن مسعود، قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن»

وروي عن عبد الله بن عمر، يقول: « لقد عشنا برهة من دهر وأحدنا يرى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد - صلى الله عليه وسلم- فنتعلم حلالها وحرامها، وأمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها، كما تعلمون أنتم اليوم القرآن، ثم لقد رأيت اليوم رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته، ولا يدري ما أمره ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه، وينثره نثر الدقل»

علم الإنسان في ما ينفعه ويضره محدود بنظرة حالية وقتية

« وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم »

قال الله تعالى [وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ] البقرة: 216

في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد ، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه ، لم يأمن أن توافيه المضره من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد أوجب له ذلك أمورا :

منها : أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه في الإبتداء ، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع . وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هويته نفسه ومالت إليه ، فإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب، وخاصية العقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل .

فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها، والعقل الكيّس دائماً ينظر إلى الغايات من وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة ، فيرى المتأهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سمٌ قاتل ، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السم ، ويرى الآوامر كدواء كريه المذاق مفض إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أمره نفعهُ بالتناول .

ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها ، وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لما يؤمل عند الغاية ، فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك ، وإذا قوي يقينه وصبره هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة .

ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور ، والرضا بما يختاره له ويقضيه له ، لما يرجو فيه من حسن العاقبه .

ومنها : أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه ولا يسأله ما ليس له به علم ، فلعل مضرّته وهلاكه فيه وهو لا يعلم ، فلا يختار على ربه شيئا بل يسأله حسن الاختيار له وأن يرضيه بما يختاره فلا أنفع له من ذلك .

ومنها : أنه إذا فوّض أمره إلى ربه ورضي بما يختاره له أمدّه فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر ، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه ، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه .

ومنها : أنه يريحه من الأفكار المتبعة في أنواع الإختيارات ، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة وينزل في أخرى ، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه ، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه ، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه ، لأنه مع اختياره لنفسه ، ومتى صح تفويضه ورضاه ، اكتنفه في المقدور والعطف عليه واللطف به فيصير بين عطفه ولطفه ، فعطفه يقيه مايحذره ، ولطفه يهون عليه مافدّرهُ .

إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيله في رده ، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر طريحاً كالميته ، فإن السبع لا يرضى بأكل الجيف .